

## مراجعة نقدية لبعض الدراسات التي تناولت الشعوبية

د. عرفات كرم ستوني  
الأمين العام لمنندى الفكر الإسلامى

2010

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

بلغت الحضارة الإسلامية لأوجها فى العصر العباسى، فهو عصر التقدم والإزدهار والرقي فى جل المجالات، عصر شارك فى تأسيس قواعده وبنائه عقول مختلفة من أجناس مختلفة، وبالأخص العقول الأعجمية كالفرس، بل نستطيع القول أنه عصر الأعاجم، فى هذا العصر (أى العباسى) ظهرت فرق عديدة ومذاهب مختلفة، وحركات فكرية متباينة وثورات سياسية، ومن هذه الحركات الحركة الشعوبية التى بدأت بالظهور فى صورة حركة تصحيحية شعبية غير مؤسساتية منظمة عرفت آنذاك بأهل التسوية، وهذه الحركة قد رفضت من قبل أكثر الباحثين

الذين يغلب عليهم الفكر القومي العربي، من غير أن يناقشوها وفق المنهج العلمي السليم، ويبينوا الأسباب التي دعت إلى ظهور مثل هذه الأفكار، وعرض تلك الأفكار ونقدها بروح علمية يفتح مجالاً واسعاً لمعرفة حقيقة الحركة، هل هي حركة تصحيحية أو أنها حركة تحريفية؟ وقد بلغت الحركة ذروتها في العصر العباسي، حيث بدأت بإصلاح الحياة الاجتماعية، وانتهت إلى حركة سياسية ثورية بعد أن انضم إليها شخصيات من ذوي اتجاهات متباينة، واستطاعت هذه الشخصيات أن تتستر بستار الشعبوية، وتتخذها أداة ثقافية لبثت العقائد الوثنية، والدعوة إلى التراث القومي، والبحث عن الهوية الثقافية بدل الهوية العقدية، وقد أشار الجاحظ (ت هـ) إلى ذلك بقوله: " فإن عامة من ارتاب بالإسلام، إنما كان أول ذلك رأي الشعبوية، و التماذي فيه، وطول الجدل المؤدي إلى القتال، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحب من أبغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام"<sup>1</sup>.

### تصنيف الباحثين

تناول الباحثون قديماً وحديثاً الحركة الشعبوية، تلك الحركة التي احتلت مساحة واسعة في تاريخ الفكر الإسلامي، وقد اختلفت مناهج أولئك الباحثين في دراستهم لتلك الحركة، وربما نستطيع أن نصنف جميع الباحثين الذين وقف الباحث على دراساتهم وبحوثهم الا صنفين: الصف الأول: باحثون متعصبون لم يلتزموا العلمى. بل أسرعوا في توزيع التهم، وإبداء الأحكام السطحية القاسية حول الشعبوية في كونها حركة زندقية وإباحية، ودعوة إلى التراث القومي، وقد غض هؤلاء الباحثون الطرف عن الظروف التاريخية التي ولدت الحركة، ورفضوا الأفكار التي دعت الشعبوية مع كون تلك الأفكار بحاجة ماسة إلى قراءة جديدة، ونظرة كلية متأنية، أما النصف الثاني: باحثون منصفون التزموا الأمانة العلمية والحديدية والموضوعية في دراسة الحركة، حيث درسوها من الناحية التاريخية في كونها كانت حركة اجتماعية تصحيحية عرفت بأهل التسوية، ثم تحولت إلى حركة تحريفية سياسية عرفت بالشعبوية في العصر العباسي وذلك عند انضمام بعض الشخصيات المشبوهة إلى دائرتها الفكرية من الأدباء والشعراء والمفكرين، وسيتبين لنا منهج دينك الصنفين من خلال عرض الدراسات السابقة إنه من الخطأ المنهجي أن نرفض فكرة ما لكونها جاءت من دائرة فكرية متهمة قلقة من غير أن نناقشها مناقشة هادفة في ضوء المعايير الإسلامية وقد كان هذا شأن حال الباحثين من الصف الأول. حيث رفضوا جميع الأفكار التي طرحتها الشعبوية بحجة أن الشعبوية صنو الزندقية والإباحية والدعوة إلى التراث القومي، ولم يقف بعضهم عند هذا الحد حتى اتهم طائفة من أعلام الفكر الإسلامي بالشعبوية، لأن آراءهم وافقت آراء الشعبوية،

### نموذج من تلك الدراسات

إن أكثر الدراسات التي وقف الباحث عليها تنقسم إلى قسمين:

<sup>1</sup> الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر: كتاب الحيوان (دم. مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده 1387هـ 1968م) 22/7

الأول: دراسات تاريخية وصفية صرفة تسرد الأحداث والوقائع مركزة على الدور السياسي في التاريخ الإسلامي، وخاصة تلك الثورات التي اتهمت بالشعبوية كثورة أبي مسلك الخرساني والبرامكة في سعهد هارون الرشيد.

الثاني: دراسات أدبية تتناول حركة الأدب والشعر العربي، ودرو الشعبوية في هذا النطاق، تتركز مثل هذه الدراسات على طائفة من الأدباء والشعراء ممن اتهموا بالشعبوية مع الاتهام بازندقة والإباحية أمثال بشار بن برد وأبي تواس وأبن المقفع وغيرهم، وبين يدي الباحث مجموعة من هذه الدراسات منها: كتاب (العقد الفريد) الإمام ابن عبد ربه الأندلسي (ت228هـ/940م)<sup>2</sup>. ما ألفه ابن عبد ربه يفر ضخم تناول موضوعات شتى: تطرف في صفحات إلى الشعبوية وحجمهم مع ذكر ردود ابن قتيبة الدينوري (ت276هـ/890م) على الشعبوية، فهي ليست دراسة بمعنى الكلمة بقدر ما هي مقتطفات من الحوار الدائر بين الإتجاهات المعاكسة، فهو حوار بين ابن قتيبة والشعبوية، ثم نقف على رسالة ابن ابن حجر الهيتمي (ت973هـ/1566م) (مبلغ الأرب في فخر العرب) وهي مختصر رسالة الحافظ العراقي الشهرزوري (محبة القرب في فضل العرب) وقد أشار ابن حجر الهيتمي إلى عذع الحركة بقوله: "فإن كثيرين من الفرق الأعجمية والطوائف العنادية جبلوا على بغض العرب، فقعدوا في مهاوي العطب جهلا بما اختصهم الله به من المزايا التي لا يؤتوها غيرهم، والعطايا المحققة لقدرهم، وعظيم خيرهم"<sup>3</sup>. ونجد رسالة أخرى على هذا النمط للمصنف مرعى يوسف الكرمي الحنبلي (ت1033هـ/1624م) عنوانها (مسبوك الذهب في فضل العرب وشرف العلم على شرف النسب) وهي تضاهي رسالة ابن الهيتمي في عرض موضوعاتها في ذكر الأحاديث الواردة في فضل العرب. إن هذه الدراسات الكلاسيكية تتناول الشعبوية بذكر الأحاديث الواردة في فضل العرب، وذلك لإبطال فكرة المساواة التي تدعو إليها الشعبوية، وهي طريقة المحدثين، ولهذا نجد في أكثر كتب السنة بابا خاصا في ذكر الأحاديث الواردة في فضل العرب، وكأن ذلك رد غير مباشر على الشعبوية فيما يبدو. ولقد حققت هذه الأحاديث والآثار على طريقة المحدثين، فهي غي صحيحة. ثم جاء محمد صديق حسن القنوجي البخاري (ت1253هـ/1838م) فتعرض لهذا الحركة في كتابه الكبير (الدين الخالص) تناول القنوجي الشعبوية بشكل مختصرة جدا، ونقل ما ذكره ابن ابن عبد ربه من الحوار بين الشعبوية وابن قتيبة الدينوري، ثم اختار مذهب الشعبوية في قضية المساواة بين العرب والعجم حيث قال: "ليس مذهب الشعبوية في المساواة بين العرب والعجم بخلط... وأقر ما استقر عليه رأي ابن قتيبة"<sup>4</sup> لكننا نجد القنوجي مترددا في ذلك، حيث ذكر ان للعرب مزايا تفضلهم على غيرهم، منها ان الرسول صلى الله عليه

<sup>2</sup> ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي: العقد الفريد، تحقيق عبدالمجيد الترحيني (بيروت، دار الكتب العلمية، ط، 1404هـ، 1983م) 253/3.

<sup>3</sup> الهيتمي، ابن حجر: مبلغ الأرب في فخر العرب: تحقيق: يسرى عبد الغني عبدالله (بيروت، دار الكتب العلمية، 1410هـ، 1990م) ص19-20.

<sup>4</sup> القنوجي: الدين الخالص تحقيق محمد هاشم سالم (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ، 1495م) 364/3.

وسلم منهم، وأن القرآن نزل بلغتهم ، ولغه اهل الجنة هي العربية<sup>5</sup> جاء هذا التردد بناء على حيث غير صحيح<sup>6</sup> عول عليه القنوجي، ذكره في مقدمة حديثه عن الشعوبية، ولو علم بوضعه لما تردد في ذلك، وكم من المحققين من علماء الأسم بنوا كثيرا من الأحكام على مثل هذه الأحاديث. وقد اعتمد هذا الحديث ابن قيم الجوزي (ت798هـ/1396م) لكنه أورده بصيغة التحريض وذلك في (أحكام اهل الذمة)<sup>7</sup> وثمة رسائل وكتب أشارت إلى الشعوبية وخطرها ، ولكن بأختصار شديد، او بطريق التثناء على العرب واللغة العربية، وايراد بعض الأحاديث في ذلك، ومن هذه الرسائل (فقه اللغة وسر اللغة) للثعالبي (429هـ/1037م) حيث يقول: "والعرب غير الأهم، والعربية غير اللغات والالسن"<sup>8</sup> وكتاب (المفضل في علم العربية) للزمخشري (ت538هـ/1144م) حيث قال "الله احمد على أن جعلني من علماء العربية، وجبني على الغضب والعصبية. وأبي لى ان انفرد عن صميم انصارهم) وأمتاز وانضوي إلى لفيف الشعوبية وأنحاز. وعصمني من مذهبهم الذي لم يجد عليهم الا الرشق بالأسنة اللاعبين، والمشق بالأسنة الطاعنين"<sup>9</sup>. وكذلك كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة اصحاب الجحيم) لأبن تيمية الحراني (ت728هـ/1328م) حيث يقول: "وذهبت فرقة من الناس إلى أن لا فضل لجنس العرب على جنس العجم وهؤلاء يسمون الشعوبية لأنصارهم للشعوب التي هي مغابرة للقبائل كام قيل: القبائل للعرب والشعوب للعجم"<sup>10</sup> وثمة ملاحظة مهمة وهي أن جل من رد على الشعوبية من علماء العجم، وسبب ذلك وهو دليل ظني أن الخوف من الوقوع في قفص الاتهام بالشعوبية هو الذي دفعهم للرد على الشعوبية بهذه الطريقة العنيفة المتشددة. الم يتهم ابن خلدون والبيروني بالشعوبية وكذلك اتهم الجاحظ في كونه ليس بعربي من بني كنانة، لأنه لو كان عربيا: "لما صنف كتابه في فضل الموالي على العرب"<sup>11</sup>. أما الدراسات الحديثة فقسمان: الأول دراسات تاريخية، ومن هذه الدراسات (ضحى الإسلام) الأحمدم أمين (ت1373هـ)، تناول الباحث الشعوبية في صفحات معدودة، وثمة ملاحظات نقدية حول هذه الدراسة:

(1) دراسة علمية متحصرة وهي بعيدة عن أي تعصب وهوى.

<sup>5</sup> القنوجي: الدين الخالص 364/3-365.

<sup>6</sup> الهيثمي، ابن حجر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (بيروت، دار الكتاب العربي، ط3، 1402هـ، 1982م) 53/10.

<sup>7</sup> ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، تحقيق: صبحي الصالح (بيروت، دار العلم للملايين، ط4، 1994م) 767-766/2.

<sup>8</sup> أبو منصور الثعالبي: فقه اللغة وسر اللغة : تحقيق جمال عطية (بيروت، دار الكتب العلمية، د.طت) ص25. مع أن هذا الكلام والعبارة غير موجودة في النسخة الأصلية، فلعله من زيادة النساخ.

<sup>9</sup> الزمخشري، جار الله: المفصل في علم العربية (بيروت، دار الجيل، ط2، د.ت) ص2.

<sup>10</sup> ابن تيمية الحراني: إقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم تحقيق: عصام الدين الصبابطي ( القاهرة، دار الحديث، ط1، د.ت) ص142.

<sup>11</sup> الإسفرايني، أبو المظفر: التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين: تحقيق محمد زاهد الكوثري ( د.م.ط1، مطبعة الأنوار، 1359هـ، 1940م) ص50.

(2) مال الكتاب إلى مذهب أهل التسوية يبدو، حيث ذكر أن ذلك هو مذهب: "أكثر المتدينين والعلماء من العرب والعجم، لأن روح الإسلام وقواعده تؤيد هذال المذهب"<sup>12</sup>.

(3) أسهب الكتاب في ذكر تلك المناقشات الحادة بين الشعوبية ومناوئها.  
(4) اتهم الكتاب ابن خلدون بالشعوبية لكونه نقد العرب بأسلوب عنيف، حيث قال الكتاب بأن ابن خلدون شعوبي لا لكونه نقد الإسلام بل لأنه نقد العرب: "بل يصح لنا أن نعد بان خلدون شعوبيا بهذا المعنى... وهو رأي في أشد العنف والقسوة على العرب وحصائصهم، قل أن ترى شعوبيا متطرفا وصل إلى ما وصل إليه في صراحته وشدته، ولكنه في رأينا مان مسلما حقا حر التفكير في حدود الدين"<sup>13</sup> إن ابن خلدون لم ينقد العرب فقط، بل نقد الأمم الأخرى، إلا أن نقده للعرب كان عنيفا، ولا إخال أن ابن خلدون كان متبعا لهواه في احكامه تلك حول العرب، بل إن دراسته العلمية الإجتماعية أوصلته إلى تلك النتائج العلمية. والذي يبدو من سخلال عرض هذه الدراسات أم جل الباحثين الذين اتهموا ابن خلدون بالشعوبية عولوا على أحمد أمين، مع كون أحمد أمين كان منصفًا لم يتجاوز الحدود العلمية، ولو اقتفينا هذه القاعدة بأ، كل من نقد العرب فهو شعوبي، فسنضطر أن نعد المستشرقين ومفكري الغرب وبعد علماء المسلمين شعوبيين، وهذه مبالغة وقع فيها محمد كرد علي في كتابه (الإسلام والحضارة العربية) حيث تناول محمد كرد الشعوبية في صفحات محدودة، وذكر آراء المستشرقين ومفكري الغرب حول العرب والإسلام، وعد ذلك نوعا من الشعوبية حيث قال: "ونحن نطلق لفظ الشعوبية على كل من ناهضوا العرب في القديم الحديث، وفي الشرق والغرب، وقاموا ينقصون من قدر حضارتهم وتاريخهم"<sup>14</sup> وللباحث جملة ملاحظات نقدية.

- خلط الكتاب بين الشعوبية كفرقة ظهرن في المجتمع الإسلامي لظروف معينة، وبين بعض المستشرقين ومفكري الغرب كحركة لها أهدافها المحددة في الطعن في الإسلام والعرب.
- ليس كل من نقد العرب بشعوبي، وليس نقد العرب نقدا للإسلام، لأن العرب ليسوا وحدهم ممثلين عنه،
- ليس لدراسة الكاتب أي علاقة بالشعوبية، بل هي دراسة حول المستشرقين ومفكري الغرب ورؤيتهم للعرب والإسلام.
- اتهم الكتاب العجم في كونهم انتحلوا الإسلام وتعميمه في ذلك<sup>15</sup>.

<sup>12</sup> أمين، أحمد: ضحى الإسلام (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط8، د.م) 53/1.

<sup>13</sup> أمين، أحمد: ضحى الإسلام 53/1.

<sup>14</sup> محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية (القاهرة، مطبعة لجنة التألفي والنشر، ط3،

1968م) 35/1.

<sup>15</sup> محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية 35/1.

- قول الكاتب بأن الإسلام جاء لإسقاط الجنسية<sup>16</sup> مع أن هذا القول يحتاج إلى مناقشة علمية، تتناول مفهوم الجنسية، وكذلك صحة نظرية كون الإسلام جاء لإسقاط الجنسية، ولو كان ذلك كذلك لما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، تعلموا النسب، ولا تكونوا كنبط السواد، إذا سئل أحدهم عن أصله: قال: من قرية كذا<sup>17</sup>.
  - تعصية للقومية مع كونه غير عربي، والذي يبدو أن الكاتب لم يستمر على هذه الوتيرة، حيث نجده في أواخر حياته العلمية يبحث عن جنسيته التي أسقطها الإسلام في زعمه، بل إن آيات الشعوبية تبدو على كلماته حيث يقول: " جاء جدي من مدينة السليمانية من بلاد الأكراد، وسكن قبل نحو مائة وخمسين سنة، وأمي شركسية من قفقاسيا، فأنا على رغم من امن، ومن كفر من جنس اري لا يقبل النزاع، وليس للغربي ولا للشرقي ما يقول في دمي"<sup>18</sup>. ولعل الظروف السياسية والاجتماعية هي التي جعلته قوميا عربيا يتجاوز حدود المعقول، وحولته إلى مثقف يبحث عن جنسيته التي أضاعها.
  - تشبيه الشعوبية بالحرر المستنفرة فرت من قسورة وهم مناوؤها<sup>19</sup>، مع أنه تشبيه قرأني في وصف الكفار والمشركين.
  - رده على نظرية ابن خلدون في كون حملة العلم أكثرهم من العجم<sup>20</sup>.
- وتعرض للشعوبية جرجي زيدان في كتابه (تاريخ التمدن الإسلامي) وثمة ملاحظات:
- دراسة مختصرة جدا، مع أنه كان ينبغي الحديث عنها بشيء من التفصيل، لكون الحركة تشكل مساحة لا بأس بها في مثل هذه الدراسات.
  - أسهب الكاتب في الحديث عن العرب والموالي قبل الإسلام وبعده.
  - اعتمد في حديثه المختصر عن الشعوبية على (العقد الفريد) وخاصة فيما جرى بين ابن قتيبة و الشعوبية من مناقشات<sup>21</sup>.
  - قول الكتاب: " وكان فضل العرب على سواهم قضية مسلمة في صدر الإسلام، لاتحتاج إلى دليل"<sup>22</sup>. هذه القضية ليست مسلمة، لأننا لاتدري

<sup>16</sup> محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية 35/1.

<sup>17</sup> ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: درويش الجويدي (بيروت: المكتبة العصرية، ط2، 1416هـ، 1996م) 132/1.

<sup>18</sup> النفاوي: محمد كرد علي المثقف وقضية الولاء السياسي (تونس، داؤ الجنوب، د.ط. 1993م) ص12.

<sup>19</sup> محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية 36/1.

<sup>20</sup> محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية 35/1.

<sup>21</sup> زيدان، جرجي: تاريخ التمدن الإسلامي (بيروت، مكتبة الحياة، د.ط. 1967م) 424/4 وما بعدها.

عند من كان فضل العرب مسلماً، با إن قضية فضل الجنس أي جنس سواء أكان جنساً عربياً أو أعجمياً، لم تكن حديث صدر الإسلام، بل ظهرت متأخراً، بلغت ذروتها في عهد الأمويين، عهد السيادة العرقية العربية، ولقد حارب الإسلام مثل هذه التصورات التي تفضل جنساً دون جنس، قال تعالى يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم<sup>23</sup>. عن أبي نضرة حدثني من سمع خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في وسط أيام التشريق، فقال: أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى<sup>24</sup>. وما أكثر الآيات والأحاديث الثابتة في التأكيد على فلسفة المساواة في الإسلام، وبين يدي الباحث دراسة أخرى حول (الزندقة و الشعوبية وانتصار الإسلام والعروبة عليهما) للكاتبة سميرة مختار الليثي، وللباحث ملاحظات نقدية على هذه الدراسة:

- الدراسة مليئة بالمعلومات التاريخية، إلا أنها ينقصها المنهج العلمي الموضوعي.
- طغيان القومية العربية على عقلية الباحثة، يبحث أفسدت عليها أحكامها، فجاءت نتائجها حسب عاطفتها نحو قوميتها، وهذا واضح من خلال العنوان، تقول الكاتبة: " وحق للعرب أن يعتزوا بقوميتهم وحضارتهم، فقد وقف الإسلام والعروبة صامدين أمام تيارات الزندقة مما يثبت قوتها وأصالتها"<sup>25</sup> إن جل من كتب الشعوبية من أشباع القومية العربية، ولهذا نلفيهم يدندون حولها، فيسمون الأشياء بغير أسماءها، فيقولون: الفكر العربي والفلسفة العربية والحضارة العربية والفتوحات العربية، وهؤلاء بطبيعة الحال جاءت أحكامهم جائز جداً بحق الشعوبية، فهم لا يبضونها خوفاً على الفكر الإسلامي، بل حبا للعروبة التي عادت الشعوبية، وهذه الملاحظة عامة حول كثيرة من هذه الدراسات الذاتية غير العلمية.
- صورت الباحثة التاريخ الإسلامي ومأنه صراع بين العرب والفرس.

<sup>22</sup> زيدان، جرجي: تاريخ التمدن الإسلامي (بيروت، مكتبة الحياة، د.ط. 1967م) 343/4 وما بعدها.

<sup>23</sup> سورة الحجرات الآية 13.

<sup>24</sup> أحمد بن حنبل: المسند، تحقيق أحمد محمد شاكر (مصر، دار المعارف، د.ط، 1378هـ، 1988م) 411/5.

<sup>25</sup> سميرة الليثي: الزندقة والشعوبية وانتصار الإسلام والعروبة عليهما (القاهرة، مكتبة الإنجلو المصرية، 1986م) ص 16.

لم تناقش الكتابة الأسباب الحقيقية التي دفعت الحركة الشعوبية إلى الوجود كدعوة إصلاحية اجتماعية، بل أسرعت في توزيع الأحكام، فحكمت على الشعوبية بأنها زندقة تريد بعث التراث الفارسي القديم، فلا بد من معرفة الأسباب النفسية والاقتصادية والسياسية والفكرية التي أحاطت بالمناخ الثقافي للحركة الشعوبية.

ذكرت الكاتبة دعوات الشعوبية في كونها تمثل خطرا على الإسلام والعروبة، تقول الكاتبة: " فذهب كتابهم إلى أن العرب ليسوا أفضل من غيرهم من الأمم، بل إن سائر الأمم تفضلهم مثل الروم والهند والصين، وعدادوا نقائص العرب في الجاهلية، وقال، إن الإسلام ليس دين العرب وحدهم، بل هو دين سائر الناس، وامترجت العصبية الموجهة ضد العرب بالتعصب للقومية الفارسية،<sup>26</sup> الكاتبة لم تعط تعريفا للعروبة ولهذا لا نستطيع معرفة قصدها في هذه الزاوية. والحقيقية أن العروبة شيء والإسلام شيء، فالعروبة لا تعني الا العودة على الجاهلية التي هدمها الإسلام، لأنها انتساب ثقافي، وليس بديني البتة. فليس ثمة فكر عربي وفلسفة عربية وحضارة عربية، بل ثمة فكر إسلامي وفلسفة إسلامية وحضارة إسلامية وذلك لأن هذه الحضارة وهذا الفكر وهذه الفلسفة من إسهامات عقول مختلفة عابا وعمما، بل إن بعض الباحثين يرون أن العقول الأعجمية عي الأكثر مساهمة في بناء الثقافة الإسامية، ثم تذكر الكاتبة دعوات الشعوبية وكأنها أباطيل لا بد من رفضها، فمثلا قول الشعوبية: إن العرب ليسوا أفضل من غيرهم من الأمم، والحقيقية أنه لا بد من تحديد الأفضلية: هل المقصود أفضلية الخصائص والصفات الأخلاقية والدينية؟ فإن كان المقصود بذلك الجنس فليس ثمة جنس أفضل من جنس، وإن كان غير ذلك فإن لكل أمة خصائص وصفات خلقية رقيقة، وإن كانت الأفضلية بسبب الدين الحق، فإن غير العرب قد دخلوا في هذا الدين، فتساوت الأجناس والأمم كلها، وأفضلها أتقاها كما قال الله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)<sup>27</sup>. وفي تاريخ الفكر الإسلامي نجد ابن قتيبة الدينوري العدو اللدود للشعوبية، يؤلف رسائل انقض أفكار الشعوبية، ورسائل في فضل العرب، إلا أن ابن قتيبة ندم على ما اختار من رأي في فضل العرب على غيرهم، والسبب أن ذلك الرأي يصطدم صريح القران وسنة رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم، وقد أشار ابن عبد ربه إلى ذلك يقول: " وما رأيت أعجب من ابن قتيبة في كتاب فضل العرب، إنه ذهب في كل مذهب من فضائل العرب، ثم ختم كتابه بمذهب الشعوبية، فنقض في اخر كل ما بنى في أوله، فقال في اخر كلامه، وأعدل القول عندي أن الناس كلهم لأب وأم خلقوا من تراب، وأعيدوا إلى التراب، وجروا مجرى البول،

<sup>26</sup> سميرة الليثي في كتابها: الزندقة والشعوبية وانتصار الإسلام والعروبة عليهما ص203.

<sup>27</sup> سورة الحجرات الآية 13.



وطراً عليهم الأقدار، فهذا نسبهم الأعلى الذي يرتدع به أهل العقول عن التعظيم والكبرياء والفخر بالأباء، ثم إلى الله مرجعهم، فتنقطع الأسباب، وتعطل الأحساب إلا من كان حسبه التقوى، أو كانت مآتته<sup>28</sup> طاعة الله<sup>29</sup>.

• إن قول الكاتبه عن الشعبين: وعددوا نقائص العرب في الجاهلية، وسيتعرض الباحث لتاريخ العرب والعجم قبل الإسلام من الناحية العقدية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية بشكل مختصر، فترجى الحديث إلى ذلم الحين، قول الشعبوية: إن الإسلام ليس دين العرب وحدهم، بل هو دين سائر الناس، لا يشك عاقل منصف في هذه الحقيقية في كون الإسلام دين الناس وليس دين العرب وحدهم، وهذه حقيقة قرآنية قال تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)<sup>30</sup>. والآيات والأحاديث في إثبات هذه الحقيقة كثيرة لا مجال لسردها ولا يدري الباحث كيف خفيت هذه الحقيقة على الكاتبة، وهذا يؤيد ما ذكرناه في كون الكاتبة طغى عليها الفكر القومي بحيث أفسد عليها أحكامها ونتائجها.

و ثمة دراسة أخرى وقف عليها الباحث حول حركة الشعبوية وأثرها الاجتماعية والسياسي في الحياة الإسلامي في العصر العباسي الأول) للدكتورة زاهية قدورة<sup>31</sup>. وللباحث ملاحظات نقدية على هذه الدراسة.

1. إن الكاتبة طغى على دراستها الفكر القومي العربي، حيث صورت الفتوحات الإسلامية بأنها انتصار العربية على الأمم الأخرى كالفرس والروم وغيرهم.

2. صورت الكاتبة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قائدا عربيا يريد إقامة دولة عربية، ولهذا كما تزعم الكاتبة أجلى عمر بن الخطاب غير المسلمين كاليهود والنصارى من الجزيرة العربية، وذلك لبقاء الجنس العربي خالصا غير مشوب بالأجناس الأخرى تقول الكاتبة: " وكان عمر بعيد النظر، فأراد عزل العرب المسلمين عن غيرهم من الشعوب، وحفظهم عنصرا أرسقراطيا لاتشوهه العناصر الغربية"<sup>32</sup> والتاريخ ينقض هذه الفكرة، حيث إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يفضل صهيب الرومي وبالا الحبشي وسلما مولى أبي حذيفة على كثيرة من الصحابة من المهاجرين والأنصار، ذكر ابن عبد ربه أن

<sup>28</sup> المآتة أي الحرمة والوسيلة.

<sup>29</sup> ابن عبد ربه: العقد الفريد 359/3.

<sup>30</sup> سورة الأنبياء الآية 107.

<sup>31</sup> زاهية قدورة في كتابها الشعبوية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول (بيروت، دار الكتاب العربي، ط1، 1972م).

<sup>32</sup> زاهية قدورة: الشعبوية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي ص39.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما طعن قدم صهيبا على المهاجرين والأنصار فصلى بالناس، وقيل له استخلف، فقال ما أجد من استخلف، فذكر له الستة من أهل حراء، فكلهم طعن عليه، ثم قالوا: لو أدركت سالما مولى أبي حذيفة حيا لما شككت فيه"<sup>33</sup>. وقال ابن عمر (رض) لمعاوية: " فإن الخلافة ليست بهرقلية ولا بقيصرية ولا كسروية يتوارثها الأبناء عن الآباء، ولو كان كذلك لكنت القائم بها بعد أبي، فواله ما أدخلني مع الستة من أصحاب الشورى"<sup>34</sup>. ولو كان ما ذكره الكاتب صحيحا لما قال عمر بن الخطاب لبلال الحبشي: " إن أبابكر سيدنا، وأعتق سيدنا، وهو ثلث الإسلام"<sup>35</sup>.

3. ربطت الكاتبة بين مقتل الخليفة عمر بن الخطاب (رض) والشعبوية، حيث تقول: " وقد كانت حادثة مقتل الخليفة عمر باعثا من بواعث الحركة الشعبوية فيما بعد"<sup>36</sup>. والذي يراه الباحث أن هذا الربط ضعيف جدا، وذلك الآن هذه الحركة كانت دعوة إصلاحية اجتماعية عرفت في بدايتها باهل التسوية، ولم تتخذ صورة ثورية وعقيدية وفكرية خطيرة إلا في مراحلها الأخيرة في العصر العباسي، وذلك عندما انضم إليها ذوو الاتجاهات المشبوهة كما كر ذكره انفا.

4. ذكرها الأحاديث مع عدم تحقيقها، ثم بناء الأحكام المهمة على بعض الأحاديث الواهية. وكان ينبغي لها أن في ذلك المجال، لأن دراستها تاريخية تعالج الجوانب الاجتماعية والسياسية.

5. اتهمت الكاتبة، البيروني (ت.44هـ/1048م) في كونه يفتخر بفارسيته<sup>37</sup> وأخطر من ذلك في كونه أعتق الشعبوية<sup>38</sup>. لكونه نقد اللغة العربية في بعض مفرداتها، أن يرفضون نقد اللغة العربية في بعض مفرداتها يقعون في مغالطة أخرى وهي تقديس اللغة، وهؤلاء تصوروا أن القرآن وهو كتاب مقدس تزل باللغة العربية، فاكتمت اللغة

<sup>33</sup> ابن عبد ربه: العقد الفريد 3/355. وانظر: الشهرستاني، أبو الفتح عبد الكريم: نهاية الأقدام في علم الكلام: تحقيق ألفرد جيوم (د.م.ب.مكتبة الثقافة الدينية) ص491. وقد حاول الشهرستاني تأويل هذه القصة حيث قال: " ولم يظهر منه أنه كان يجوز الإمامة لغير قريش، وأما سالم فقد كان يتسب إلى قريش، فلذلك قال: مات تخالجي فيه شك، لما شهد النبي عليه السلام بحين سيرته وأمانته، وهذا تأويل بعيد لأنه ظهر ما يثبت تجويز عمر بن الخطاب لذلك، أما سالم فقد كان مولى لإمرأة من الأنصار".

<sup>34</sup> ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة (د.م.ب.مؤسسة ناصر للثقافة) 242/1.

<sup>35</sup> رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون (بيروت، دار الجيل، ط1، 1411هـ، 1992م) 108/1.

<sup>36</sup> زاهية قدورة: الشعبوية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي ص41.

<sup>37</sup> زاهية قدورة: الشعبوية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي ص96.

<sup>38</sup> زاهية قدورة: الشعبوية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي ص126.

صغة القداسة من القران، مع أن اللغ ليست إلا أداة ووسيلة للتعبير، وأي قداسة يمكن تصورها لأداة مجردة، وفكر نقديس اللغ نجدها في المسيحية حيث إن الكاثوليكية ترى اللغة اللاتينية لغة مقدسة، وهكذا الأرثوذكسية ترى اليونانية. فما ذكره البيروني ليس طعنا في اللغ، بل نقد علمي واجتهاد شخصي في جزئية لا تشكل هذا الحجم الذي ذكره بعض الباحثين، يقول البيروني وهو يصدد الحديث عن لغة الهندية السنسكريتية، ثم عقب ذلك بالحديث عن العرب ولغتهم قائلاً: "فإنهم يسمون الشيء الواحد بأسماء كثيرة جدا والمثال بالشمس فإنهم سموها بألف اسم على ماذكروا كتسمية العرب الأسد يقرب من ذلك، وهم من شايهم يتبحون بذلك، وهو من أعظم معايب اللغة:"<sup>39</sup> وتحدث البيروني أيضا عن تعبير الأسماء من لغة إلى أخرى، فذمر اليونان والهند في كونهم يغيرون الأسماء فتغدو غير واضحة، وذكر ذلك العرب في كونهم يفعلون مثل صنع اليونان والهند، حيث قال، كفعل العرب في الأسماء فتصير ممسوخة مثل (طوشنط) في كتبهم إياها (فرسنج) ومثل (سكلنكد) فإنه في دواوينهم (فارفز) وما أبعد الأمر وأطم"<sup>40</sup> بل نستطيع أن نذكر أمثلة حديثة حيث نجد أن بعضهم عرب كواللمبور عاصمة ماليزيا إلى (قواللمبور) و (أكرى) إلى عقراوي.<sup>41</sup> واميدي إلى عمادي وهلم جرا، ولقد كان البيروني على حق في كونها تصير ممسوخة، والأمثلة عديدة لمن يستقرئ ذلك، وبناء على رأي الكاتب فإن سيوية شعوبي لكونه نقد اللغة العربية وعاب بعض أقاويل العرب، ومع كونه فارسيا إلا أن احدا لم يتهمه بذلك. ووقف الباحث على دراسة أخرى مختصرة تناولها الدكتور محمد إبراهيم الفيومي في كتابه (الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسي) وهي في الحقيقة دراسة قصيرة مختصرة لا تنفي باعلا، حيث تناول الشعوبية في فضل وصلتها بالمذاهب الإباحية والزندقية، ولقد عول الكاتب في جمع معلوماته جلها على دراسة سميرة اليثي، عرضنا كتابها سابقا، وللباحث جملة ملاحظات نقدية:

1. قول الكتاب: "وإذا كان الأعاجم قد أقبلوا في بادئ الأمر على الدخول في الإسلام، فإنهم لم يفعلوا ذلك من أجل الإسلام نفسه. بمقدار ما فعلوه ابتغاء المزايا التي كان يمكنهم منها، فهم قد اتخذوا الإسلام وسيلة للتقرب من الطبقة الحاكمة، وللمشاركة فيما كان لها من مزايا، أي هم

<sup>39</sup> البيروني، أبو الريحان: في تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مردولة ( الهند، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، د.ط. 1377هـ، 1958م) ص185..

<sup>40</sup> البيروني، أبو الريحان: في تحقيق ما للهند من مقولة ص250.

<sup>41</sup> والغريب أن بعضهم لا يزال يستعمل هذا المصطلح المشوه، مع كونه من آثار التعريب المرة، فالأولى الابتعاد عن هذه التحريفات والتشويبات الاصطلاحية، والاقتصار على الكلمة المستعملة في اللغة الكردية.

اتخذوه وسيلة ليستعربوا ما كان للعرب من حقوق ومزايا، ثم أنفسهم بأسماء عربية والحقوا بالقبائل العربية<sup>42</sup> هذا الكلام فيه خطورة وتجني على الأعاجم الذين أسلموا طواعية وإخلاصاً لله تعالى، ذم سموا إن الكاتب لم يحدد الفترة التي دخل الأعاجم الإسلامية طمعا ونيلا لبعض الحقوق والمزايا، فإن كان يقصد بداية ظهور الإسلام فذلك غير صحيح، لأنه لم يكن للعرب المسلمين انذاك دولة تحفظ حقوقهم، وتغدق عليهم نعماً وامتيازات بحيث يطمع الأعجمي للدخول في الإسلام لنيل تلك الحقوق والامتيازات، لأن الأعاجم كانت لهم حضارة وهم كانوا اصحاب حقوق والامتيازات: قال ابن خلدون: "ولهذا نجد أوطان العرب وما ملكوه في الإسلام قليل الصنائع بالجملة حتى تجلب من قطر أخرى. وانظر إلى بلاد العجم من الصين والهند وأرض الترك وأمم النصرانية كيف استكثرت فيهم الصنائع واستجلبهم الأمم من عندهم<sup>43</sup>. وإن كان يقصد العهد الأموي فإن الأمويين أقصوا الأعاجم عن الحياة السياسية والإدارية، وإن كان يقصد العهد العباسي فقد كان العصر عصرهم، وهو المعروف بالعصر الفارسي، وهم أهل نفوذ وشوكة، والذي يبدو من كلامه أنه يقصد بداية ظهور الإسلام، وأما قوله بأن الأعاجم طمعا لنيل الحقوق والمزايا سموا أنفسهم بأسماء عربية والحقيقية أن ثمة فرقا بين الأسماء العربية والأسماء الإسلامية، فالأعاجم سمو أنفسهم بأسماء إسلامية لا عربية، فقل أن تجد أعجميا في التاريخ سمى نفسه أو ولده الأسماء خذ مثلا وصخر وجحش وقصى وحرب وشمر وهلم جراء فهذه أسماء عربية، وقد كان من دأب العرب في الجاهلية التطير، فكانوا يسمعون أولادهم بأسماء غريبة وذلك لصرف الشر عنهم مثاله كلب وأسد وصخر كما أشار إلى ذلك ابن قتيبة الدينوري<sup>44</sup>. بينما الأسماء الإسلامية عي التي اختارها رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل عبد الله وعبدالرحمن وهمام وحارث ومحمد وأحمد وحسن وحسين وغير ذلك كثير. وربما غير رسول الله صل الله عليه وسلم أسماء بعض الصحابة مثل حرب إلى سهل وغير ذلك، فالأعاجم سموا أنفسهم بأسماء إسلامية حبا للإسلام لا كما يذهب إليه الكاتب، قول الكاتب: "فالشعبوية في الأصل هم الخوارج الذين ذهبوا لأسباب دينية ينكرون أن يكون بين الشعوب والقبائل أي تفاضل فطري"<sup>45</sup> كان ينبغي أن يقال أهل التسوية في الأصل هم الخوارج، لأن الشعبوية يقال أهل

<sup>42</sup> الفيومي، محمد إبراهيم: الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسي (بيروت، دار الشروق، ط1،

1419هـ، 1998م) ص282.

<sup>43</sup> ابن خلدون: المقدمة 374/1.

<sup>44</sup> ابن قتيبة الدينوري: تأويل مشكل القرآن (القاهرة، دار التراث، ط2، 1393هـ، 1973م)

ص260.

<sup>45</sup> الفيومي، محمد إبراهيم: الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسي ص291-292.

التسوية في الأصل هم الخوارج، لأن الشعوبية كمصطلح جاء متأخراً، ثم خلافاً بين الباحثين حول مفهوم المساواة عند الخزارج، وذلك لأنه من الناحية التطبيقية كانت الخوارج تحتقر الأعاجم، ولهذا لا نجد من بين صفوف الخوارج الأعاجم، فقد: "روي ابن أبي الحديد أن رجلاً من الموالي خطب امرأة من الخوارج، فقالوا له: فضحتنا"<sup>46</sup>. بل إن رجلاً من الموالي خطب بنتاً من أعراب بني سليم وتزوجها، فركب محمد بن بشير الخارجي إلى المدينة، وواليتها يومئذ إبراهيم من هشام بن إسماعيل، فشكا إليه فأرسل الوالي إلى المولى ففرق بين الموالي وزوجته، وضربه مائتي سوط، وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه،<sup>47</sup> ولذلك يمكن القول بأن النزاع القبلي ضد السيادة القرشية عي التي دفعت الخوارج للدعاية لهذا المبدأ، فلم يكن الدافع إيماناً لإقامة العدالة الاجتماعية بقدر ما كان سياسياً، ثم يحدثنا الدكتور شوقي ضيف في كتابه (العصر العباسي الأول)<sup>48</sup> عن الشعوبية من الناحية التاريخية، ولنا ملاحظات نقدية على الكتاب.

● بالرغم من قلة الصفحات التي زبرها الكاتب حول الشعوبية، فإنه قد أجاد في عرض تطور الحركة من خلال العصر العباسي الأول، إلا أن هذا الحصار لا يفي الغرض لدراسة حركة معقدة كهذه. كان ينبغي للباحث التفصيل بعض الشيء عن الشعوبية وصلتها بالزندقة، لأن العصر العباسي الأول هو عصر اكتمال بنية الشعوبية كحركة سياسة فكرية، وكذلك عصر ظهور الزندقة بصورة علنية في صورة حركة شعبية غير مؤسساتية.

ثم نلقي صفحات حول الشعوبية في دائرة المعارف الإسلامية، وللباحث ملاحظات حول تلك التعاريف المختصرة التي أبدأها كتاب دائرة المعارف الإسلامية<sup>49</sup> *The Encyclopedia of Islam*، هذه الدائرة كما هو معلوم عبارة عن بحوث ودراسات لمجموعة من المفكرين الغربيين ومعهم المشترقون، وهي لا تعطي أي تفاصيل عميقة عن الموضوعات الثانوية بين صفحاتها، ولهذا تلقي صفحات مختصرة عن الشعوبية مأخوذة جلها بين بحوث ودراسات كل من المستشرق كول زيهير وجيب، ولنا ملاحظات نقدية على هذه الصفحات:

- 1) هذه الصفحات مع قلتها أعطت تصوراً واضحاً للحركة نشأة وتطوراً.
- 2) قول كول زيهير: "إن ثمة قوتين وراء حركة معاداة العرب *anti Arab* إحداهما أن العباسيين مارسوا بقوة سياسة معاداة العرب، ثانيهما

<sup>46</sup> نقلاً عن أستاذنا الدكتور: فتاح، عرفان عبد الحميد: دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية (بيروت، دار البشير، ط2، 1417هـ، 1997م) ص92.

<sup>47</sup> أمين، أحمد: ضحى الإسلام 23/1.

<sup>48</sup> شوقي ضيف: العصر العباسي الأول (دم. دار المعارف. ط13).

<sup>49</sup> Bosworth C. E, van Donzel, Lewis, B, & Pellat, CH, (eds), *The Encyclopedia Of Islam*, (Leiden,: E. J. Brill. 1986).

إن الفرس أسلموا سطحيا حيث بدءوا يبحثون عن الوعي القومي لهم.<sup>50</sup> وهذا الكلام فيه مغالطات واضحة.

(3) إن العباسيين كانوا عربا، وظلت السيادة عربية، وهم لم يمارسوا تلك السياسة التي ذكرها كولدزيهر أي معاداة العرب، بل قد مارسوا سياسة المساواة بين المسلمين عربا وعجما، ثم إن تلك السياسة لم تدم، بل تغيرت وبدأت تمارس السياسة الأموية، بل ربما تجاوزت، حيث قتل أبو مسلم الخرساني بيد أبي جعفر المنصور، ووقعت محنة البرامك في عهد هارون الرشيد.

(4) إن الفرس لم يسلموا سطحيا، بل أسلموا طواعية، وقد نجد هناك من أسلم سطحيا، إلا أن السواد الأعظم أسلموا يقينا وإخلاصا، والقول يكونهم أسلموا سطحيا اتهام ولكن كثير من العلماء الذين هم من الأعاجم بدا بعد تلك السياسية الجائزة التي اتبعتها بعض العباسيين المتأخرين الذين كانوا ينظرون إلى الأعاجم نظرة ازدرا: "ويعدونهم لبنة غير صالحة في بنيان الدولة العباسية."

أما القسم الثاني: فدراسات أدبية ركزت على الجانب الأدبي ودور الشعراء في الشعوبية والزندقة في عصر العباسي: ومن هذه الدراسات (الزندقة و الشعوبية في العصر العباسي الأول) للدكتور حسين عطوان، وثمة ملاحظات نقدية حول هذه الدراسة:

● هذه الدراسة ركزت على الجانب الأدبي، ودور الشعراء الذين اتهموا بالزندقة و الشعوبية أمثال بشار بن برد وأبي العتاهية وأبي نواس وغيرهم.

1. إن قراءة مقدسة الكاتب تكفي لمعرفة النتائج التي توصل إليها الباحث، حيث تسرع في إبداء الأحكام القاسية، يقول الكتاب عن الشعوبيين وهم الموالي الفرس: "يريدون إطفاء الشريعة الإسلامية، وإزالة الدولة العربية، وإحياء الديانات الوثنية ولاسيما المانوية والمزدكية، وإقامة الدولة الفارسية"<sup>51</sup> ثم مع ذلك يقول الكاتب: "فإنني التزمت الحيطة في دراستها التزاما شديدا"<sup>52</sup> وأي حيطة هذه أن لا يفرق الكاتب بين أهل التسوية والشعوبية، فيتهم الجميع يتهم عقيدية ودينية، ثم إن الشعوبية ليست متعلقة بالفرس وحدهم، بل إن أقواما آخرين ظهروا لتجديد هذه الدعوة ومن هؤلاء البربر (الأمازيغ) حيث بعد مائتي سنة من زوال الشعوبية، ظهرت الشعوبية البربرية في الأندلس، وقادها أبو أمير ابن غريسة في القرن الخامس الهجري.<sup>53</sup> تحدث الكاتب عن السياسة الأموية

<sup>50</sup> *The Encyclopedia Of Islam* volume 5 P 514.

<sup>51</sup> حسين عطوان في كتابه: الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول (بيروت، دار الجيل، د.ب.ط) ص9.

<sup>52</sup> حسين عطوان: الزندقة والشعوبية ص9.

<sup>53</sup> *The Encyclopedia Of Islam* volume 5 P 515.

عندما أبعدت الموالي عن المجالات السياسية، حيث بين أن ذلك أمر طبيعي، يقول الكاتب: " وهذه السياسة مع مافيهها من مخالفة لروح الإسلام، تبدو طبيعية مع ظروف العرب السياسية والفكرية في الدولة الأموية، فالعرب هم الفاتحون المنتصرون، والأمويون هم السادة الحاكمون"<sup>54</sup>. إن العصر الأموي يمثل نقطة التحول الكامل من مبدأ الوحدة العقدية إلى العنصرية القبلية العربية، فقد كانت سياستها جبروتية عاتية تجاه الأعاجم الذين دخلوا الإسلام باختلاف طبقاتهم، وهي في الحقيقية تنافي دعوة الإسلام وما جاء به الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكذلك ما انتهجه كل من ابي بكر وعمر رضي الله عنهما، ليست الظروف السياسية والفكرية هي التي دفعت الأمويين إلى انتهاج هذه السياسة الخاطئة، بل إن العنصرية القبلية، والنظرة الدونية إلى الآخرين كالموالي هي التي دفعتهم إلى تلك السياسة، وخاصة بعد تغلبهم على الأسم الأخرى الأكثر تقدما وتمدنا، إن تغلب الأمم المتخلفة على الأمم المتقدمة حضاريا تغرس في نفوس المتغلبين روح العظمة والغطرسة إذا لم تدرك أن سر انتصارها وتغلبها في دينها وفكرها وعقيدتها، لافي جنسها وعصبيتها، وهذا ماحدث فعلا للأمويين حيث صوروا انتصاراتهم بأنها انتصار للعروبة على الأمم، الأخرى" وذلك بأن الأمويين بارغم من شعورهم الديني الذي لامراء فيه كانوا قد قدموا على مل شيء اخر فكرة القومية بل فكرة العرقية وهي فكرة سيادة العرب"<sup>55</sup>. وقد أشار إلى ذلك الجاحظ يقوله، فعندما استوى معاوية على الملك، واستبد على بقية الشورى، وعلى جماعة المسلمين من الأنصار والمهاجرين في العام الذي سموه عام الجماعة، وماكان عام جماعة، بل عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة، والعام الذي تحولت فيه الإمامة مذكا كسروبا، والخلافة غصبا قيصريا"<sup>56</sup>.

2. قول الكاتب: " الحركة كانت في حقيقتها تعبيراً عن الوعي القومي الفارسي، وفي مظهرها تدموا من السلطان العربي، ولو صح أ، الموالي كانوا يضجون في الدولة الأموية من ضيم واقع عليهم، واستبداد أجحف بعم، وأنهم كانوا يبتغون المساواة والعدل: اوجب أن يتلاشى تضجرهم وقلقهم، وينتهي تدمرهم وضيقهم بعد قيام الدولة العباسية، فقد أنصفت وسوت بينهم وبين العرب:"<sup>57</sup> لابد من التفريق بين أهل التسوية و الشعبية، ثم إن الحركة في حقيقتها تعبيراً عن الوعي القومي الفارسي، قد نجد من بين صفوفها شخصيات مشبوهة تدعو إلى ذلك، ولكن ذلك لا

<sup>54</sup> حسين عطوان: الزندقة والشعبية ص156.

<sup>55</sup> لويس غرديه، جورج قنواتي: فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، ترجمة صبحي الصالح وفريد جبر (بيروت، دار العلم للملايين، ط1، 1978م) 66/1.

<sup>56</sup> رسائل الجاحظ 11/2.

<sup>57</sup> حسين عطوان: الزندقة والشعبية ص158.

يمثل حقيقية الحركة، أما كون ذلك التذمر من السلطان العربي الذي حدث في الدولة الأموية يتلاشى في العهد العباسي الذي سوى بين العرب وغيرهم، فذلك السياسة، بل إنها غيرت سياستها تجاه العجم خاصة في أواخر عهدها، وغير مثال على ذلك قتل أبي مسلم الخرساني بيد أبي جعفر المنصور، ومحنة البرامكة بيد هارون الرشيد، مع إجماع المؤرخين أن الدولة العباسية قامت على كواهل الأعاجم، ولهذا السبب بقي التذمر من الدولة العباسية من قيل الأعاجم.

3. قول الكاتب: " ولم يكن الشعوبية مجهولون أ، تحقيرهم للعرب في العصر الجاهلي، وتصويرهم لهم بمظهري البدارة الساذجة، والتخلف في العلم ولفلسفة والصناعة والحكم، إنما هو تحقير من وجه آخر لحاضرهم الإسلامي".<sup>58</sup> بناء على هذا الكلام فإن كثيرا من الباحثين المسلمين يعدون من عادة الشعوبية أمثال ابن حزم الأندلسي (ت456هـ/1064م)<sup>59</sup> والشهرستاني (ت548م)<sup>60</sup> وابن خلدون (ت799هـ/1397)<sup>61</sup> والمقرئزي (ت844هـ/440م)<sup>62</sup> ومحمد عبده (1905م)<sup>63</sup> وغيرهم ممن ذهب إلى هذا الرأي في وصف العرب قبل الإسلام بهذه الصورة، ثم أن هذا الربط غير صحيح بيا العصر الجاهلي والعصر الجديد بمجيء الإسلام لأن الإسلام ليس استكمالا للعصر الجاهلي، بل هو عهد جديد في حياة العرب، ثم إن نقد العرب لسي نقدا للإسلام لأن العرب ليسوا وحدهم ممثلين عنه، ودراسة أخرى وقفنا عليها بعنوان الشعوبية والأدب- أبعاد ومضمونات من العصر الجاهلي حتى القرن الرابع الهجري) للدكتور خليل إبراهيم جفال.

للباحث ملاحظات نقدية على هذا الكتاب:

1. قول الكاتب: " ثم لو كان في نفوس العرب من الرهية والخشية للفرس والروم ما يرويه البعض، فكيف نفسر الوضع الهجومي الذي اتخذه العرب بع سنوات من تمركز الإسلام في الجزيرة العربية: " <sup>64</sup> ولنا على هذا الكلام ملاحظات:

<sup>58</sup> حسين عطوان: الزندقة والشعوبية ص161.

<sup>59</sup> ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل: تحقيق محمد عميرة ومحمد إبراهيم نصر (السعودية، مكتبة عكاظ، ط1، 1402هـ، 1982م) 1/195.

<sup>60</sup> الشهرستاني، أبو الفتح محمد عبدالكريم: الملل والنحل، تحقيق: أحمد فهمي محمد (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1410هـ، 1990م) 1/.

<sup>61</sup> ابن خلدون: المقدمة 374/1.

<sup>62</sup> تقي الدين أبو العباس المقرئزي: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (بيروت، دار صادر، دت) 4/163.

<sup>63</sup> محمد عبده: رسالة التوحيد (دم. دار المنار) ص134.

<sup>64</sup> خليل إبراهيم جفال: الشعوبية والأدب، أبعاد ومضمونات من العصر الجاهلي حتى القرن الرابع الهجري (بيروت، دار النضال، ط1، 1968م) ص28.



- بصورة الباحث الإسلام دينا روحانيا جاء لسد الفراغ الثانوي في قلوب العرب، وليس انقلابا للعقلية العربية بكل جوانبها.
- إن الرسول صلى الله عليه وسلم أعاد بناء الشخصية العربية على أسس الإيمان والعقيدة وأزال النعرة القبلية، والعصبية بين القبائل العربية المتناطحة.
- إن الإيمان الذي دخلت بشاشته قلوب الصحابة هو الذي أزال ذلك الخوف والرهبة والخشية في قلوبهم من الإمبراطوريتين الفارسية والرومية.

(ب) قول الكتاب وهو بصدد ذكر أسباب ظهور الشعوبية: "فالإسلام لم يغز المجتمعات الأخرى ابتداء، بالفكر، إنما غزاها بالسيف، ودمر أمجادها، وسبى أهلها، وقوض حضارتها، وفرض قيمه ومثله على أهلها، فكان طبيعيا أن تحاول تلك الشعوب التخلص من الاحتلال يحدوها أمل كبير بإستعادة أمجادها، وبعث تراثها من جديد"<sup>65</sup>. في هذا الكلام مغالطات واضحة:

- زعمه أن الإسلام غزا الأمم الأخرى بالسيف قبل الفكر، وهذه فكرة استشراقية رفضها حتى بعض المشرقين أنفسهم من الذين يلتزمون العلمية في دراستهم.
- الإسلام لم يفرض قيمه ومبادئه على الأمم الأخرى، بل عرضها ووضحها وبينها لهم، ولقد رفض القرآن مبدأ الإكراه في الدين، فقال تعالى { لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي }<sup>66</sup>. ثم إذا كانت ثمة عقبات في طرق نشر هذه المبادئ بين الأمم والمجتمعات فحينئذ لابد من إزاحة تلك العقبات من طريق الجهاد الذي هو ماض الى يوم القيامة.

● تسمية الفتوحات الإسلامية بالاحتلال،  
 ج- بحث الكتاب موضوعا بعنوان الشعوبية ومحاولة تزييف الحديث النبوي"<sup>67</sup>. ويقصد بذلك أن الشعوبية وضعت احاديث في فضل العجم، وهذا صحيح بلا ريب، ولكن في مقابل ذلك ثمة أحاديث وضعت في فضل العرب، وهي أكثر عددا، فلم يكن التزييف صنيع الشعوبية فقط.  
 هـ- قول الكاتب: " وهذه الشعوبية وإن لم تظهر إلا في العصر العباسي الأول، فإن لها من الأصول والجذور ما يعود إلى العصر الجاهلي، وعصر الفتوحات العربية الإسلامية، وإن السياسة الأموية كانت من أوكدا الأسباب لتفجر النزعة العدائية للعرب في صفوف

<sup>65</sup> خليل إبراهيم جفال: الشعوبية والأدب ص 81.

<sup>66</sup> سورة البقرة الآية 256.

<sup>67</sup> خليل إبراهيم جفال: الشعوبية والأدب.

العناصر الأخرى".<sup>68</sup> وهذه مبالغة في إرجاع الحركة إلى العصر الجاهلي، فإن الحركة بدأت بجهود الفرس المسلمين الوثنيين، ثم إن هذا يقتضي أن للفرس لم يدخلوا في الإسلام إلا خوفا من سطوة السيف، وهذا ما أكده الكاتب قبل أسطر في كون الإسلام انتشر بالسيف. وإن كنا لا ننكر أن ثمة من دخل نفقا، إلا أن ذلك ضئيل جدا، ثم إن الدولة الأموية لم تفجر العدا. بل زرعت العدا، بين العرب والعجم، فإن التفجير يقتضي وجود عدا. مسبق، لأننا لا تلقى أي عدا بين العنصرين في العهد الراشدي.

---

<sup>68</sup> خليل إبراهيم جفال: الشعبية والأدب ص 81.



